الطفولة وحقوق الطفل
عند فاطمة الزهراء عليها السلام

الأستاذ المساعد الدكتور
هاشمية حميد جعفر
جامعة الكوفة ـ كلية التربية الأساسية

الطفولة وحقوق الطفل عند فاطمة الزهراء عليها السلام

الأستاذ المساعد الدكتور
هاشمية حميد جعفر
جامعة الكوفة ـ كلية التربية الأساسية

المقدمة:ـ

إن فاطمة الزهراء هي ابنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي هز أركان الفكر الإنساني، وهي زوجة رجل هو ركن من أركان الحق، وامتداد لأعظم نبي في التاريخ.

وقد حازت الزهراء عليها السلام على كمال العقل وطيب الصفاء، وكرم المحتد وعاشت في جو شعت عليه وامتدت به وعبرت عنه فكراً وانتاجاً وغدت خطاً في الرسالة التي انطلقت ثورةً فكانت ركناً من أركانها.

قد مثلت الزهراء عليها السلام أشرف ما في المرأة من إنسانية وصيانة وكرامة وقداسة ورعاية وعناية، فضلاً عن ما كانت عليه من ذكاء وقاد وفطنة حادة وعلم واسع وكفاها فخراً أنها تربت في مدرسة النبوة وتخرجت من معهد الرسالة وتلقت عن أبيها الرسول الأمين صلى الله عليه وآله ما تلقاه عن رب العالمين.

ومما لاشك فيه إنها تعلمت في دار أبويها ما لم تتعلمه طفلة غيرها في مكة[1].

لقد سمعت القرآن من الحبيب المصطفى وسمعته من علي المرتضى وصلت به وعبدت به ربها بعد أن وعت أحكامه وفرائضه وسننه وعياً لم يحصل عليه غيرها من ذوي الشرف والمكرمات.

ونشأت الزهراء نشأة إيمان ويقين ووفاء وإخلاص وزهد وعلمت مع

السنين إنها سليلة شرف لا منازع لها فيه من واحدة من بنات حواء.

لقد نشأت الزهراء وهي تحذو حذو أبيها في كل كمال حتى قالت عنها عائشة: (ما رأيت أحداً من خلق الله أشبه حديثاً وكلاماً برسول الله صلى الله عليه وآله من فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ورحب بها وأجلسها في مجلسه وكان إذا دخل عليها قامت إليه ورحبت به وأخذت بيده فقبلتها[٢].

المحور الأول: طفولة فاطمة الزهراء عليها السلام

كانت لفاطمة الزهراء عليها السلام طفولة مميزة تختلف عن غيرها من الأطفال فهي خلقت بأمر رباني، فقد روي أن النبي محمد صلى الله عليه وآله بينما كان جالساً بالابطح إذ هبط عليه جبرئيل عليه السلام فناداه: (يا محمد العلي الأعلى يقرئك السلام، وهو يأمرك أن تعتزل خديجة أربعين صباحاً) فبعث إلى خديجة بعمار بن ياسر واخبرها بالأمر الإلهي وأقام النبي صلى الله عليه وآله أربعين يوماً يصوم نهاراً ويقوم ليلاً فلما كان تمام الأربعين هبط جبرئيل عليه السلام فقال: ((يا محمد العلي الأعلى يقرئك السلام وهو يأمرك أن تتأهب لتحيته وتحفته)).

فبينما النبي صلى الله عليه وآله كذلك إذ هبط ميكائيل ومعه طبق مغطى بمنديل سندس، فوضعه بين يدي النبي صلى الله عليه وآله واقبل جبرئيل عليه السلام وقال: ((يا محمد يأمرك ربك أن تجعل الليلة إفطارك على هذا الطعام فأكل النبي صلى الله عليه وآله شبعاً وشرب من الماء رياً ثم قام ليصلي فأقبل عليه جبرئيل وقال: ((الصلاة محرمة[٣] عليك في وقتك حتى تأتي منزل خديجة فإن الله – عز وجل – آلى على نفسه أن يخلق من صلبك في هذه الليلة ذرية طيبة)) فوثب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى منزل خديجة رضي الله عنها. قالت خديجة رضي الله عنها: (وكنت قد الفت الوحدة فكان إذا جنني الليل غطيت رأسي وأسجفت ستري وغلقت بابي، وصليت وردي، وأطفأت مصباحي، وأويت إلى فراشي فلما كان تلك الليلة لم أكن بالنائمة ولا بالمنتبهة، إذ جاء

النبي فقرع الباب فناديت: (من هذا الذي يقرع حلقة لا يقرعها إلا محمد صلى الله عليه وآله؟ قالت خديجة: فنادى رسول الله صلى الله عليه وآله بعذوبة كلامه وحلاوة منطقه: (افتحي يا خديجة فاني محمد) وفتحت الباب ودخل النبي المنزل، فلا والذي سمك السماء وانبع الماء ما تباعد عني النبي صلى الله عليه وآله حتى أحسست بثقل فاطمة في بطني[٤].

فلما حملت بالزهراء فاطمة عليها السلام كانت إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من منزلها تكلمها فاطمة الزهراء في بطنها من ظلمة الأحشاء، وتحدثها وتؤانسها، فدخل يوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسمع خديجة تحدث فاطمة فقال لها: (يا خديجة من تكلمين؟ قالت: يا رسول الله إن الجنين الذي أنا حامل به إذا أنا خلوت به في منزلي كلمني وحدثني من ظلمة الأحشاء فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال: (يا خديجة هذا أخي جبرئيل عليه السلام يخبرني إنها ابنتي، وإنها النسمة الطاهرة المطهرة وإن الله تعالى أمرني أن اسميها (فاطمة) وسيجعل الله تعالى من ذريتها أئمة يهتدي بهم المؤمنون))[٥].

وروي انه لما سأل الكفار رسول الله صلى الله عليه وآله انه يريهم انشقاق القمر وقد بان لخديجة حملها بفاطمة وظهر – قالت خديجة: واخيبة من كذب محمداً وهو خير رسول ونبي فنادت فاطمة من بطنها: يا أماه لا تحزني ولا ترهبي فإن الله مع أبي))[٦].

واقترب موعد الولادة ولم تزل خديجة تأنس بجنينها وتعيش الأمل على الفرحة بالولادة فلما حضرتها الولادة أرسلت إلى نساء قريش ونساء بني هاشم.. فأرسلن إليها: عصيتينا ولم تقبلي قولنا، وتزوجت محمداً يتيم أبي طالب، فقيراً لا مال له، فلسنا نجيء ولا نلي من أمركِ شيئاً، فاغتمت خديجة لذلك فبينما هي كذلك إذ دخل عليها أربع نسوة طوال كأنهن من نساء بني هاشم ففزعت منهن، فقالت إحداهن: لا تحزني يا خديجة فإنا رسل ربك

إليكِ، ونحن أخواتك، أنا سارة وهذه آسية بنت مزاحم وهي رفيقتك في الجنة، وهذه مريم بنت عمران، وهذه كلثم أخت موسى بن عمران بعثنا الله تعالى إليكِ لنلي من أمرك ما تلي النساء من النساء.. فوضعت فاطمة عليها السلام طاهرة مطهرة فلما سقطت إلى الأرض أشرق منها نور حتى دخل بيوتات مكة فتناولتها المرأة التي بين يديها فغسلتها بماء الكوثر وأخرجت خرقتين بيضاوين فلفتها بواحدة وقنعتها بالثانية ثم استنطقتها فنطقت فاطمة عليها السلام بالشهادتين ثم سلمت عليهن وسمت كل واحدة منهن باسمها واقبلن يضحكن إليها، وقالت النسوة: خذيها يا خديجة طاهرة مطهرة زكية ميمونة، بورك فيها وفي نسلها فتناولتها فرحة مستبشرة وألقمتها ثديها فدر عليها[٧].

وكانت خديجة إذا ولدت ولداً دفعته لمن يرضعه، فلما ولدت فاطمة عليها السلام لم يرضعها أحد غير خديجة عليها السلام[٨].

وقد وصفها الرسول صلى الله عليه وآله بما رواه ابن عباس إن الرسول صلى الله عليه وآله قال: (ابنتي فاطمة حوراء أدمية، لم تحض ولم تطمث، وإنما سماها فاطمة لأن الله فطمها ومحبيها من النار[٩] وعنه صلى الله عليه وآله: (إن فاطمة حوراء إنسية كلما اشتقت إلى الجنة قبلتها)[١٠] وقالت أم أنس ابن مالك: (كانت فاطمة كالقمر ليلة البدر.. بيضاء مشربة حمرةً، لها شعر أسود، من أشد الناس برسول الله صلى الله عليه وآله شبهاً)[١١].

وكانت فاطمة أصغر بنات النبي صلى الله عليه وآله عاشت شطراً من أيام الرضاعة في شعب أبي طالب حيث الظروف الصعبة والقاسية، ثم فاطمة من اللبن وهناك درجت تمشي على رمضاء الشعب وتعلمت النطق وهي تسمع أنين الجياع وصراخ الأطفال المحرومين، وبدأت تأكل في زمن الحرمان والفاقة، وبقيت هذه الحال ثلاث سنين تقريباً والزهراء عليها السلام في هذا السجن لا يربطها بالعالم الخارجي أي شيء حتى أدركت سن الخامسة.

ثم انتقلت السيدة خديجة عليها السلام إلى جوار ربها الكريم حتى أصبحت الطفلة الصغيرة مسؤولة عن رعاية أبيها والسهر عليه ولكنه لم يكن أباً عادياً، فتحملت الزهراء عليها السلام مسؤولية بيت ورعاية أسرة وهي طفلة صغيرة بعد أن رُزِئَت بوفاة والدتها تلك الأم الحنون وذلك في عام الحزن، ويحس الأب الرسول صلى الله عليه وآله بوطأة الحزن على نفس فاطمة عليها السلام ويرى دموع الفراق تتسابق على خديها، فيرق قلبه الرحيم وتفيض مشاعر الود والأبوة الصادقة فيحنوا رسول الله صلى الله عليه وآله على فاطمة يعوضها من حبه وحنانه ما فقدته من أمها من حب ورعاية وحنان وهذا حق من حقوق الطفولة على الوالدين عند فقدان أحدهما أن يعوض الآخر ما فقده الطفل من رعاية ومحبة وحنان واهتمام. فلم يكن أحب إلى قلب الرسول صلى الله عليه وآله ولا أقرب إنسان إلى نفسه من فاطمة وكان يؤكد هذه العلاقة ويوضح مقامها ومكانتها في أمته وهو يمهد لأمر عظيم وقدر خطير يرتبط بها وبذريتها.

وتكبر فاطمة عليها السلام وتشب ويشب معها حب أبيها لها، ويزداد بره وحنانه عليها، وتبادله هي هذا الحب وتملأ قلبه بالعطف والرعاية فكلاهما أصبحا يتيمي الأم فيسميها ((أم أبيها)).

إنه النموذج القدوة من العلاقة الأبوية الطاهرة التي تساهم في بناء شخصية الأبناء، وتوجه سلوكهم وحياتهم، لقد كانت هذه العلاقة هي المثل الأعلى في رعاية الإسلام للطفولة والعناية بها.

وتشاهد فاطمة أباها والصفوة المؤمنة من دعاة الإسلام السابقين بالإيمان يخوضون ملحمة الجهاد والبطولة ويؤثر هذا الجو الجهادي في نفسها ويساهم في تكوين شخصيتها وإعدادها لحياة التحمل والمعاناة. لقد عايشت فاطمة عليها السلام كل ذلك وهي لم تزل صبية صغيرة.

المحور الثاني: حقوق الأطفال عند فاطمة الزهراء عليها السلام

حينما أصبحت أماً لخمسة أطفال هم (الحسن، الحسين، زينب، أم كلثوم في حين أسقط جنينها المحسن قبل ولادته)[١٢].

وعملت فاطمة الزهراء عليها السلام على تطبيق كل ما تعلمته من والديها في تربية أبنائها والذي تمثل بالحقوق والمبادئ التي تمتعت بها في ظلهما وكان من تلك المبادئ ما يأتي:

١- حق الطفل في عبادة الله:

إن سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام جعلت من نفسها قدوة صالحة لأولادها كي تمنحه حقهم في عبادة الخالق تعالى فهي التقية النقية الورعة التي شهد لها القرآن الكريم – سورة الدهر – على كمال إخلاصها وخشيتها لله سبحانه وعظيم إيمانها به وباليوم الآخر، وشهد الرسول صلى الله عليه وآله لها قائلاً: (إن ابنتي فاطمة ملأ الله قلبها وجوارها إيماناً الى مشاشها ففرغت لطاعة الله)[١٣].

وأخبر عن عبادتها: (إنها متى قامت في محرابها بين يدي ربها جل جلاله زهر نورها لملائكة السماء كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض، ويقول الله - عز وجل - لملائكته:

(ياملائكتي انظروا الى أمتي فاطمة سيدة إمائي قائمة بين يدي ترتعد فرائسها عن خيفتي وقد اقبلت بقلبها عن عبادتي، وأشهدكم اني قد امنت شيعتها من النار)[١٤].

وكانت عليها السلام تخصص الساعات الأخيرة من نهار الجمعة للدعاء كما كانت لا تنام الليل في العشر الأخيرة من شهر رمضان المبارك وكانت تحرض جميع من في بيتها بإحياء الليل بالعبادة والدعاء. حتى قال ولدها الحسن بن

علي عليه السلام : (رأيت أمي فاطمة عليها السلام قامت في محرابها ليلة جمعتها فلم تزل راكعة ساجدة حتى اتضح عمود الصبح وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت لها: (يا أماه لِمَ لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟ فقالت: يا بني الجار ثم الدار)[١٥].

وقال الحسن البصري عنها: (ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة كانت تقوم حتى تورمت قدماها)[١٦].

وكانت تنهج في صلاتها من خوف الله تعالى[١٧] ان فاطمة عليها السلام لم تخرج في حياتها كلها عن المحراب فما كانت حياتها الا السجود الدائم لله فهي في البيت تعبد الله في حسن التبعل وفي تربية أولادها، وهي في قيامها بالخدمات العامة كانت تطيع الله وتعبده أيضاً كما أنها في مواساتها للفقراء كانت تقوم بعبادة الله بنفسها وأهل بيتها مؤثرة على نفسها.

فكل ما قامت به سيدتنا من عبادة الله وطاعته كان أمام أولادها ليرتسم في أذهانهم ما تقوم به وتعلو في صوتها كي تسمع آذانهم، وتحثهم على القيام به ليطبقوه فتفرح بهم وهذا حق من حقوقهم.

٢- حق الأطفال في الحب والمودة:

وتجلى هذا المبدأ عند سيدتنا عليها السلام في علاقتها الطيبة الودودة مع الحسن والحسين عليهما السلام حيث كانت واعية إن مناغات الطفل في المرحلة الأولى ضرورية فهي تؤثر على نموه اللغوي والعاطفي، فكانت عليها السلام تناغي الحسن عليه السلام وتقول له: (أشبه أباك يا حسن واخلع عن الحق الرسن واعبد إلهاً ذا منن ولا توالِ ذا الاحن).

وكانت تناغي الحسين عليه السلام وتقول: (أنت شبيهن بابي لست شبيهاً بعلي)[١٨] بهذه الكلمات التي تنم عن مدى ثقافتها الإسلامية وأسلوبها الرصين المهذب

كانت تناغيهم لتعبر عن حبها لهم.

٣- حق الطفل في تربيته على أسس الإيمان:

فكانت عليها السلام ترضع أولادها من لبن الإيمان الخالص، فقد غذتهم بالقيم الروحية الإسلامية العالية وجعلت بيتها المتواضع مناراً للإيمان.

٤- حق الطفل في تعليمه الأخلاق الحسنة: حرصت عليها السلام على تنشئة أولادها على الاستقامة وعودتهم على الصراحة والصدق والوفاء بالعهد والتحلي بمكارم الأخلاق.

٥- حق الطفل في منحه الاحترام: وكانت الزهراء تحترم شخصية أطفالها وتعاملهم معاملة الرجال مما جعلهم يشعرون بمنزلتهم ويطلعون على مكانتهم ويبنون شخصيتهم.

٦- حق الطفل في تعليمه كيفية الاعتماد على النفس: فمن الشروط الأساسية للتكامل الفردي والاجتماعي اعتماد الفرد على نفسه وعدم الاتكال على غيره، ونرى ذلك واضحاً في شخصية الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام فالزهراء ربيبة الوحي والنبوة تعرف جيداً مناهج التربية الإسلامية فاعدت الحسن ليتحمل مسؤولية قيادة المسلمين ويتجرع الغصص في أحرج اللحظات من تأريخ الرسالة، ويصالح معاوية على مضض حفاضاً على سلامة الدين الإسلامي فيسقط ما في يد معاوية ويفشل كل خططه.

والزهراء عليها السلام ربت الحسين عليه السلام الذي اختار التضحية بنفسه وجميع أهله وأعز أصحابه في سبيل الله ومن أجل مقارعة الظلم والظالمين وربت عليها السلام زينب وأم كلثوم، وعلمتهن دروس التضحية والفداء والصمود أمام الظالمين، حتى لا يذعن ولا يخضعن للظالم وقوته،

ويقولن الحق، اما جبروت بني امية بكل جرأة وصراحة، لتتضح خطورة المؤامرة على الدين وعلى أمة سيد المرسلين[١٩].

٧- **حق الطفل في توفير الطعام:** فكانت عليها السلام تقوم بخدمة أطفالها وتوفر لهم الغذاء وترعاهم وهذه حادثة تثبت ذلك فقد جاءت فاطمة عليها السلام يوم الخندق ورسول الله صلى الله عليه وآله منهمك مع أصحابه في حفر الخندق لتحصين المدينة وحماية الإسلام، جاءت وهي تحمل كسرة خبز فرفعتها إليه فقال صلى الله عليه وآله: (ما هذه يا فاطمة؟) قالت: (من قرص اختبزته لابني، جئتك منه بهذه الكسرة) فقال صلى الله عليه وآله: (يا بنية أما إنها لأول طعام دخل في فم أبيك منذ ثلاث)[٢٠].

وهذه الرواية تؤكد إن الزهراء عليها السلام كانت تخبز لأولادها لتطعمهم وتغذيهم فلم تكن أم عابثة لاهية.

٨- **حق الطفل في توفير الجو الهادئ في الأسرة:** فقد عاش الزوجان النموذجيان فاطمة وعلي عليهما السلام في الإسلام وأديا واجباتهما وضربا المثل الأعلى للأخلاق الإسلامية السامية، والعلاقة الزوجية المتينة التي يسودها الحب والتفاهم، فعن أبي سعيد الخدري قال: أصبح علي ابن أبي طالب عليه السلام ذات يوم ساغباً فقال: (يا فاطمة هل عندك شيء تغذينيه؟) قالت: (لا، والذي أكرم أبي بالنبوة وأكرمك بالوصية ما أصبح الغداة عندي شيء وما كان شيئا طعمناه مذ يومين إلاّ شيء كنت أؤثرك به على نفسي وعلى ابني هذين (الحسن والحسين) فقال علي عليه السلام: (يا فاطمة الا كنت اعلمتني فأبغيكم شيئاً؟) فقالت: (يا أبا الحسن إني لأستحي من إلهي أن أكلف نفسك ما لا تقدر عليه)[٢١] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله عنهما في ليلة زواجهما لعلي عليه السلام: (يا علي، نعم

الزوج فاطمة) وقال لفاطمة عليها السلام: يا فاطمة، نعم البعل بعلك)[٢٢] وقال صلى الله عليه وآله: لولا علي لم يكن لفاطمة كفؤ)[٢٣].

فلا تنحصر مسؤولية الزوجين اتجاه بعضهما البعض فقط بل تشمل دائرة أوسع من ذلك بكثير فهما مسؤولان عن أبنائهما، فالطفولة لها حق كبير، وتربيتهما تربية صالحة هي مسؤولية كبرى تقع على عاتق الوالدين.

فالأطفال بحاجة الى محيط أسري هادئ يشعرهم بالطمأنينة والأمن، أما النزاع والاختلافات فهي بمثابة عاصفة عاتية تدمر مشاعر الطفل وتقذف في قلبه الخوف والقلق.

وإذا كانت هناك هموم تعكر صفو الحياة فينبغي على الوالدين معالجتها بعيداً عن الأطفال.

فالابتسامة والحنان والمحبة والرعاية هي حق الطفولة وهي من واجبات الوالدين وبالأخص الأم لأنها تقضي وقتاً طويلاً مع أولادها. وهذا ما نراه لدى سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام فكانت توفر الجو اللازم والدفء والحنان المطلوب في البيت المشترك وبهذا كانت تشترك في جهاد علي عليه السلام أيضاً فإن جهاد المرأة حسن التبعل كما ورد في الحديث الشريف[٢٤]. هذه لمحة عابرة عن الطفولة وحقوق الأطفال عند الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء البتول عليها السلام.

نرجو من الله أن يجعلنا وإياكم في خدمة فاطمة وأبيها وبعلها وبنيها والسر المستودع فيها.

هوامش البحث

(١) أهل البيت لتوفيق أبو علم: ١١٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) قد يكون المراد هو الصلاة النافلة.

(٤) بحار الانوار: ١٦-٧٩/٨٠ وروى هذا المضمون الذهبي في ميزان الاعتدال: ٥٤٠/٣ والخطيب البغدادي في تاريخه:٨٧/٥ ومحب الدين الطبري في ذخائر العقبى: ٥٥/٥٤.

(٥) عن الثاقب في المناقب للطوسي: ١٨٧.

(٦) عن الروض الفائق:٣١٤، والجنة العاصمة:١٩٠،ينظر مسند فاطمة عليها السلام لتويسر كاني:٧٧.

(٧) دلائل الامامة:٨ و ٩، نزهة المجالس: ٢٢٧/٢،بحار الانوار: ٨٠/١٦-٨١، امالي الصدوق:٤٧٥.

(٨) عوالم العلوم:٤٦/١١، عن البداية والنهاية لابن كثير: ٣٠٧/٥طبعة مصر.

(٩) تاريخ بغداد:١٢ /٣٣١، الحديث:٦٧٧٢، وكنز العمال:١٠٩/١٢.

(١٠) تاريخ الخطيب البغدادي:٨٧/٥ والغدير:١٨/٣.

(١١) مستدرك الحاكم:١٦١/٣.

(١٢) لان المحسن ولد ميت من ضربة المهاجمين على دار الزهراء عليها السلام بعد امتناع علي عليه السلام من البيعة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وقد عد ابن عساكر في تاريخه في ترجمة الامام الحسن أولاد السيدة الزهراء واورد المحسن قائلاً مات في حياة أبيه.

(١٣) بحار الانوار:٤٦/٤٣، والمشاش: رأس العظم اللين.

(١٤) امال الصدوق: ١٠٠/٢٤.

(١٥) بحار الانوار:٨١/٤٣-٨٢.

(١٦) المصدر السابق.

(١٧) اعلام الدين: ٢٤٧، وعدة الداعي: ١٥١.

(١٨) بحار الانوار: ٢٨٦/٤٣.

(١٩) المصدر السابق:٩٦/٢٠.

(٢٠) ذخائر العقبى:٤٧، وفضائل الخمسة للفيروز آبادي: ١٦١/٣.

(٢١) بحار الانوار: ٥٩/٤٣.

(٢٢) المصدر السابق:١١٧/٤٣.

(٢٣) كشف الغمة: ٤٧٢/١.

(٢٤) وسائل الشيعة: ٢٢١/٢٠، طبعة مؤسسة آل البيت عليهم السلام وإعلام الهداية، سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام المجمع العالمي لأهل البيت قم المقدسة.